الباب الأول

الوضع فى الأندلس قبل الفتح

obeikan.com

obeikan.com

الفَتْحُ الإسْلَامِيُّ لِلأَندَلُسِ ، وفي بعض المصادر ذات الصبغة القوميَّة خُصُوصًا يُعرفُ هذا الحدث باسم الفَتْحُ العَرَبِيُّ لِلأندَلُسِ على الرُغم من أنَّ جيش المُسلمين تضمَّن عربًا وبربر بشكلٍ أساسيٍّ وغيرهم من العرقيَّات الأقل عددًا، كما يُعرف في بعض المصادر العربيَّة باسم الفتح الإسلامي لِإسپانيا، وفي بعض المصادر الأجنبيَّة بِالفتح الإسلامي لِهسپانيا، هو حَملةٌ عسكريَّة بدأت سنة 92هـ المُوافقة لِسنة 711م قادها المُسلِمُونْ تحت راية الدولة الأُمويَّة ضدَّ مملكة القوط الغربيين المَسيحيَّة في هسپانيا، التي حَكمت شبه جزيرة أيبيريا والتي عَرفها المُسلِمُونْ بإسم الأندلُس، بجيشٍ مُعظمه مِن البربرْ بقيادة طارق بن زياد نَزل عام 711م في المنطقة التي تُعرف الآن بِجبل طارق، ثُمَّ توجَّه شمالًا حيثُ هزم ملك القوط لُذريق (رودريك) هزيمةٌ ساحقة في معركة وادي لكة. واستمرت حتى سنة 107هـ المُوافقة لِسنة 726م واستولتْ على مناطق واسعة من إسپانيا والپُرتُغال وجنوب فرنسا المُعاصرة.

كان من أسباب فتح الأندلُس إقبال البربر على اعتناق الإسلام بعد تمام فتح المغرب وتوقهم لِلغزو والجهاد في سبيل الله، وفي نفس الوقت شجَّع والي طنجة الرومي يُليان المُسلمين على مُهاجمة الأندلُس بِسبب خِلافٍ كبيرٍ وقع بينه وبين الملك لُذريق بِسبب اعتداء الأخير على ابنته

واغتصابها عندما كانت تُقيم في بلاطه، وفق ما تتفق عليه المصادر العربيَّة والإسلاميَّة، وكذلك لأنَّ المُسلمين رأوا توجيه جُهود الفتح والغزو نحو بلادٍ حضريَّةٍ غنيَّة تُفيد الدولة الأُمويَّة وعُموم المُسلمين، بدل تحويله نحو الواحات والبلاد الصحراويَّة، ولِرغبتهم في الاستمرار بِنشر الإسلام في البُلدان المُجاورة. تمَّ فتحُ الأندلُس خِلال فترةٍ قياسيَّة نسبيًّا، واعترف المُسلمون بعد خُضوع شبه جزيرة أيبيريًّا بِحُقوق النصارى واليهود في إقامة شعائرهم الدينيَّة نظير جزيةٍ سنويَّة، كما هو الحال مع سائر أهالي البلاد المفتوحة من المسيحيين واليهود، وأقبل مُعظم القوط على اعتناق الإسلام وامتزجوا مع الفاتحين الجُدد، وانسحب قسمٌ آخر منهم نحو الشمال الأيبيري الذي لم يخضع طويلًا لِلمُسلمين عاد قائدا الفتح موسى بن نُصير وطارق بن زياد إلى عاصمة الخِلافة دمشق بِأمرٍ من الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة 96هـ المُوافقة لِسنة 714م حيثُ لم يُمارسا أي عملٍ سياسيٍّ أو عسكريٍّ بعد ذلك لِأسبابٍ اختلف فيها المُؤرخون، ولفَّ الغُموض نهاية طارق بن زياد خُصوصاً حيثُ لم يُعرف ما حلَّ به بُعيد وُصوله إلى دمشق.

كَان هَذا الفَتْحُ بِدايَةٍ لِلتواجد الإسْلَامِيُّ في الأندلُس الذي امتد لِنحو 800 عام تقريبًا، قَضاها المُسلِمُونْ في صِراعٌ مَع الإماراتْ والممالِك

المسيحيَّة التي تكوَّنت في الشمال في المناطق التي لم يغزوها المسلمون حتى سقوط مملكة غرناطة عام 897هـ المُوافق فيه 1492م وخِلال تلك الفترة أسَّس المُسلمون حضارةً عظيمة في بلاد الأندلُس حتَّى اعتُبرت منارةُ أوروبَّا خِلال العُصُور الوسطى، وحصلت حراكات اجتماعيَّة بارزة نتيجة هذا الفتح وتعدُد الأعراق البشريَّة التي سكنت بلاد الأندلُس، فتعرَّبت بعض قبائل البربر وبعض القوط، وتبربرت بعض قبائل العرب، واختلط العرب والبربر والقوط وشكَّلوا مزيجًا سُكانيًّا فريدًا من نوعه في العالم الإسلامي، وأقبل القوط الذين بقوا على المسيحيَّة على تعلُّم اللُغة العربيَّة والتثقُّف بِالثقافة الإسلاميَّة مع حفاظهم على خُصوصيَّتهم الدينيَّة، فعُرفوا بِالمُستعربين، وكتبوا لُغتهم بِالأحرف العربيَّة التي عُرفت باسم اللُغة المُستعربيَّة.

أوضاع الأندلُس قُبيل الفُتُوحات الإسلاميَّة

الوضع الجُغرافي

تقع شبه جزيرة أيبيريَّا في جنوب غرب أوروبَّا على مُثلَّثٍ من الأرض يضيق مع الاتجُّاه نحو الشرق، ويتسع غربًا، مُقابل السواحل الشماليَّة لِلمغرب الأقصى، حيثُ يفصل بينهما بحر الزقاق،وتتصل في الشمال بِفرنسا بِواسطة سلسلةٍ جبليَّةٍ تُعرف بِجبال البرتات أو البرانس أو

الپيرنيه، وهي جبالٌ تمتد من منطقة برشلونة في الشرق حتَّى مدينة بيونة في الغرب، وتتخلَّلها شعابٌ ضيِّقة وممرَّاتٌ وعرة أشهرها باب الشزري المعروف أيضاً بِممر الرونسڤال وباستثناء تلك الناحية فإنَّ المياه تُحيطُ بِشبه الجزيرة من كُل جانب، ممَّا حدا بِالجُغرافيين المُسلمين إلى وصفها بِالجزيرة تجوزًا، إذ يمتد البحرُ المُتوسِّط على طول ساحليها الشرقي والجنوبي من السُطوح الشرقيَّة لِجبال البرتات حتَّى مضيق جبل طارق، الذي يفصل شبه الجزيرة عن شمال أفريقيا بما لا يزيد عن اثني عشر ميلًا، ويلتقي عنده البحر المُتوسِّط بِالمُحيط الأطلسي الذي يُطوِّق شبه الجزيرة من ناحيتيّ الغرب والشمال، حتَّى الحد الغربي لِجبال البرتات حيثُ يُعرف في هذه الناحية الشماليَّة بِالبحر الكانتبري أو بِخليج بسكاي، وبِذلك تنعزل شبه الجزيرة عن جيرانها والواقع أنَّ جبال البرتات تُشكِّلُ سدًا يحولُ دون اتصال أيبيريا وفرنسا، ومنطقة جبل طارق تجعل الاتصال مع المغرب أكثر سُهُولةً ويُسرًا، لِذلك أضحت شبه جزيرة أيبيريا تُقبل بِوجهها على شمال أفريقيا وتُولي ظهرها لِأوروپَّا، وهذا ما أجمع عليه الجُغرافيُّون المُسلمون الذين عدُّوها امتدادًا لِأفريقيا، وليست رقعة من قارَّة أوروپا والمعروف أنَّ شبه جزيرة أيبيريَا تتشابه مع المغرب في كثيرٍ من المعالم النباتيَّة والحيوانيَّة خاصَّةً منطقتيّ طنجة وسبتة وعلى الرُغم من أنَّ أيبيريا تتكوَّن، في مُعظمها، من هضبةٍ كبيرةٍ

تُعرف بالمسيتا وهو ما يجعلها تبدو وكأنَّها وحدة جُغرافيَّة، إلَّا أنَّ كثرة الجبال التي تمتد في مُعظمها من الشرق إلى الغرب، فضلًا عن الأودية العميقة فيما بينها، قد فتَّتت هذه الوحدة، وأعاقت الاتصال بين الأجزاء المُختلفة لِشبه الجزيرة، فنشأت وحدات محليَّة تنفصل كُلٌ منها عن الأُخرى بِحواجز طبيعيَّة، ممَّا أثَّر على الأوضاع السياسيَّة.

ويُلاحظ تنوُّع الخصائص الجُغرافيَّة لِأيبيريا من تبايُن سطح الأرض، وتعدُّد الأقاليم المُناخيَّة، والغطاء النباتي، أدَّت هذه الأنماط المُناخيَّة إلى تنوُّع الحياة الزراعيَّة.

الوضع السياسي

غيطشة ملك القوط ، شهد عهده عدَّة اضطرابات وقلاقل سياسيَّة في البلاد الأيبيريَّة حيث كانت مملكة القوط الغربيين قائمة في شبه الجزيرة الأيبيريَّة مُنذ سنة 418م، عندما خلع الملك واليا ما بقي من الطاعة لِلرومان، وضرب النُقود باسمه وفرض الضرائب على رعاياه من القوط والغاليين وفي الوقت الذي فتح فيه المُسلمون بلاد المغرب، كانت المملكة القوطيَّة في أيبيريا المُقابلة تشهد تطوُّرات سلبيَّة مُتلاحقة أدَّت إلى انحلالها وضعفها وتجلَّت مظاهر الانحلال السياسي بين أفراد الطبقة الحاكمة، ذلك أنَّ نظام الحُكم القوطي كان ملكيًّا قائمًا على مبدأ الانتخاب،

حيثُ يجتمع النُبلاء ورجال الدين، بعد وفاة الملك، لاختيار خلفٍ له من بينهم وتأكَّد هذا المبدأ في مجمع طُليطلة الرَّابع الذي انقعد في سنة 633م، وفي مجامع تالية، أهمها المجمع الثامن سنة 653م ونظرًا لِطبيعة التنظيم القبلي لِمُجتمع المملكة القوطيَّة، حاول بعض المُلوك الخُروج على هذا المبدأ وجعل نظام الحُكم وراثيًّا، ممَّا أدَّى إلى إثارة التنافُس بين الطامعين في العرش، حتَّى أضحى تاريخ الملكيَّة القوطيَّة، في أواخر عهد المملكة، سلسلة من المُؤامرات والاغتيالات والحُروب الداخليَّة ولم يلبث هذا الصراع الداخلي أن دخل مرحلته الأخيرة في عهد الملك إخيكا، واستمرَّ في عهد خُلفائه، وأدَّى إلى ضعف المملكة وسُقوطها بيُسر في أيدي المُسلمين فقد خرج إخيكا على قرارات المجامع المُتعددة حين أشرك معهُ ابنه غيطشة في الحُكم تمهيدًا لِتعيينه خلفًا له، وأقدم في الوقت نفسه، على سمل عينيّ الدوق تيودوفريدو، مُرشَّح المُعارضة، فانسحب هذا من الحياة السياسيَّة مع ابنه لُذريق (رودريك).

تُوفي إخيكا في سنة 83هـ المُوافقة لِسنة 702م، فخلفه ابنه غيطشة مُتجاهلاً مبدأ الانتخاب المُتفق عليه، ممَّا أثار حفيظة النُبلاء ورجال الدين بدأ هذا الملك حياته السياسيَّة بِإصلاح أوضاع الدولة التي بلغت مرحلة خطيرة من الانهيار، فتقرَّب من المُعارضة، وعيَّن تيودوفريدو

حاكمًا على مُقاطعة بيتيكا، ومع ذلك لم يستطع أن يُزيل الحقد من نُفُوس خُصومه، كما ألَّب عليه النُبلاء ورجال الدين عندما حاول أن يحد من نُفوذهم ويُقلِّص امتيازاتهم، ويُخفف الضغط الاقتصادي عن اليهود؛ ممَّا دفعهم إلى إعلان الثورة على حُكمه، وحاكوا المُؤامرات لِلتخلُّص منه، فاضطرَّ إلى مُحاربتهم، حتَّى تقدمت به السن وعجز عن مُتابعة أعماله العسكريَّة وممَّا زاد أوضاع البلاد تفاقُمًا تدخُّل زوجة غيطشة في سياسة الدولة، إذ أقنعت زوجها بِتعيين ابنه الصبي أخيلا خلفًا له، مُكرراً ظُروف اعتلائه السُلطة، كما عيَّنهُ حاكمًا على مُقاطعتيّ طرَّكونة وناربونة في الشمال وبِفعل صغر سنِّه، عيَّن عمّه خشندس وصيًّا عليه.

آخر مُلوك القوط في أيبيريا.

تأزَّمت الأُمور من جديد بعد وفاة غيطشة سنة 91هـ المُوافقة لِسنة 710م، لأنَّ ابنه وخليفته أخيلا امتنع عن الذهاب إلى طُليطلة لاستلام الحُكم، وظلَّ قابعاً في مقر حُكمه في الشمال، فاضطرَّت والدته إلى ملء الفراغ فأدارت الشُئون العامَّة بِمُساعدة أخي زوجها المُطران أرطباس (أوپاس)، لكنَّ النُبلاء ورجال الدين رفضوا تقديم الولاء لِهذه الأُسرة الحاكمة، وأعلنوا عدم الخُضُوع لِلصبي أخيلا، كما خشوا من استبداد الوصي بِالحُكم؛ فامتنعوا من طاعته، واستقلَّ بعضُهم في الأطراف

والنواحي، وسادت الفوضى وعمَّ الارتباك في البلاد واشتدَّت حركة التمرُّد في طُليطلة، الأمر الذي دفع الأُسرة الحاكمة إلى مُغادرتها خوفًا من بطش المُعارضة، وفرُّوا إلى مُقاطعة جُليقة في الشمال الغربي من البلاد، فخلت السُلطة السياسيَّة مُجددًا عندئذٍ اجتمع كِبار النُبلاء ورجال الدين واختاروا لُذريق خليفةً لِغيطشة وواجه لُذريق، خلال حياته السياسيَّة، عدَّة صعاب لم يتمكَّن من تجاوزها وأدَّت إلى نهاية مملكة القوط، فقد كان بِحاجةٍ إلى المال لِلإنفاق على الحملات العسكريَّة وإخضاع الثورات التي اندلعت ضدَّه في جهاتٍ عديدة، وعندما حاول الاستيلاء على خزائن أسلافه الموجودة في كنيستيّ القديس بدروس والقديس بولس في طُليطلة، واجه مُعارضة من جانب رجال الدين، عندئذٍ لجأ إلى فرض مزيدٍ من الضرائب ومُصادرة بعض ثروات الكنيسة كما واجه ملك القوط انقساماتٍ سياسيَّةٍ حادَّة، خاصَّة في الشمال، نتج عنها فتن وحركات عصيان، فقضى مُعظم أيَّام حُكمه قصيرة الأمد ينتقل من جبهة إلى جبهةٍ أُخرى لِإخمادها، لِذلك لم يشعر بِالخطر القادم من الجنوب إلَّا بعد فوات الأوان وممَّا زاد الأُمور تعقيدًا هُروب العبيد من الخدمة العسكريَّة، ويدُل هذا على ضعف القوط المُتجذِر وعلى الحد الذي وصل إليه تدهوُر قُوِّتهم والمعروف أنَّ غالبيَّة أفراد الجيش القوطي كانت، مُنذ أواخر القرن السابع الميلادي، تتألَّف من العبيد المُجنَّدين، لأنَّ

القوط ركنوا إلى حياة الدعة والترف، فهجروا مهنة الحرب التي فُطروا عليها، وفقدوا صفاتهم العسكريَّة، ولم يعودوا أولئك الغُزاة الأشدَّاء فتعرَّض لُذريق أيضاً لِضغطٍ عسكريٍّ من جانب خصمه أخيلا الذي عدَّهُ مُغتصبًا لِلسُلطة، فأعدَّ جيشًا كبيرًا، بِقيادة مُستشاره ريكيسندو، ودفعهُ نحو الجنوب إلى طُليطلة لِخلعه واستعادة العرش، وعلى الرُغم من انتصار لُذريق فإنَّ هذا النصر كان قصير الأمد، فضلًا عمَّا تلاه من ازدياد الفوضى في البلاد كما ظهر حزبان كبيران مُتعارضان في توجُّهاتهما وأهدافهما انقسم بينهما أهالي البلاد، الأمر الذي وضع المملكة في جوٍ مشحونٍ قابلٍ لِلانفجار في أي وقت.

الوضع الاقتصادي

كان الوضعُ الاقتصادي في الأندلُس قُبيل الفتح الإسلامي شبيهًا إلى حدٍ كبير بِالوضع الذي كان سائدًا خِلال العهد الروماني؛ فالأرستقراطيَّة الرومانيَّة ظلَّت على أشكالها من الغنى والتمييز والطبقيَّة واستغلال التُجَّار والمُزارعين البُسطاء، فأُلتف الأعيان مع الحُكَّام القوط، وساء أمر العامَّة نتيجة تراكم الضرائب والأتاوات، ونقص الأمن بمُختلف أوجُهه. ووُصف الهيكل الاقتصاديَّ لِلمملكة بأنه رُبما كان الأقرب إلى المنظومة الرُومانيَّة من غيرها من هياكل الممالك الأوروبيَّة الغربيَّة التي كانت

قائمة آنذاك ولمَّا تولَّى لُذريق عرش القوط تابع سياسة أسلافه التقليديَّة في جمع المال، فأرهق البلاد والعِباد بِالضرائب الفادحة حتَّى عمَّ الفقر على الرُغم من غنى البلاد بِالموارد الاقتصاديَّة.

الوضع الاجتماعي

وُجدت في المُجتمع الأيبيري قُبيل الفتح الإسلامي عدَّة طبقات اجتماعيَّة كان أهمُّها:

طبقة النُبلاء: وهُم الأُمراء القوط وعلى رأسهم الملك الذي مثَّل رأس النظام القوطي، بِالإضافة إلى بقايا طبقة النُبلاء الرومان الذين تحالفوا معهم لِلمُحافظة على مُكتسباتهم وامتيازاتهم وكان أفراد هذه الطبقة قليلي العدد،وشكَّلوا فئة أرُستُقراطيَّة حاكمة ومُتميزة، نعموا بامتلاك الإقطاعات الكبيرة والضياع الواسعة، وفُقد الانسجام الحضاري بينهم وبين بقيَّة السُكَّان بِفعل عدم اختلاطهم بهم والواضح أنَّ هذا الاختلال أوجد نوعاً من التنافُر بين الطرفين، وفشلت هذه الطبقة في خلق مُجتمع مُتجانس وطني الانتماء وكانت البلاد، حتَّى مُنتصف القرن السابع الميلادي، تُحكم وتُدار من جانب إدارة مُشتركة من هذه الطبقة فالنُبلاء القوط مسئولون عن السُكَّان القوط، والنُبلاء الرومان يُمارسون سُلطانهم على السُكَّان الرومان، في حين كان الملك القوطي ومُوظفوه

الكبار يُقررون السياسة العامَّة لِلدولة وكان مُلَّاك الأراضي الكبار يُشرفون على إقطاعاتهم ومزارعهم بِواسطة وُكلاء ومُديري أعمال في مُقاطعاتهم والواقع أنَّ أفراد هذه الطبقة كانوا أغنياء جدًا، بنوا ثروتهم على حساب الطبقات الفقيرة المُعدمة وقد نجح بعضهم في الاحتفاظ بِثروته حتَّى الفتح الإسلامي.

طبقة رجال الدين: استغلَّ رجال الدين مركزهم الديني المُتميِّز فاستمتعوا بِقسطٍ وافرٍ من النُفوذ والسُلطان فامتلكوا الأراضي الواسعة والضياع والقُصُور الحافلة بِالعبيد، وأصبحوا على درجةٍ عاليةٍ من الثراء، فتناسوا المُثُل العُليا التي نادوا بها حين كانوا فُقراء، وساعدهم على بُلوغ تلك الدرجة تديُّن الأيبيريين عامَّة وسيطرة الدين في العُصُور الوُسطى على مُجمل الحياة وتمتَّع رجالُ الدين بِمركزٍ مرموقٍ لدى الحُكَّام ممَّا جعل لهم تأثيرًا مكَّنهم من توجيه القوانين والنُظم بما يكفل لهم كسب مزيدٍ من النُفوذ والامتيازات،والقُدرة على التدخُّل في الشئون السياسيَّة والعسكريَّة، وصياغة الحياة العقليَّة والاجتماعيَّة وفقًا لِتوجُّه الكنيسة وغاياتها، فكانوا يحضرون المجالس الوطنيَّة التي كانت تنظر في الشُئون العامَّة لِلدولة، ويُصادقون على انتخاب الملك، وادَّعت هذه الفئة لِنفسها الحق في عزله إذا أبى الإذعان لِقراراتها.

الطبقة الوُسطى: تألَّفت هذه الطبقة من فئة التُّجَّار وصغار المُلَّاك والمُزارعين الأحرار الذين ينتمون لِأُصولٍ قوطيَّة ورومانيَّة عاشوا في المناطق الريفيَّة والحضريَّة، ومنهم العُمَّال في المُدن الذين كانوا ينتظمون ضمن النقابات، ولا يحق لهم التحوُّل عنها أو الانتقال إلى مدينةٍ أُخرى، وحُرموا من دُخول سلك الكهنوت والقضاء واضطرَّ العديد من سُكَّان الأرياف والمُزارعين الأحرار، بِفعل ظُروفهم الاقتصاديَّة الصعبة، أن يتنازلوا عن أراضيهم لِلنُبلاء، وارتضوا بِالعمل والبقاء كمُستأجرين مُقابل تمتُّعهم بِحمايتهم، فعُرفوا بالمحميين والمعروف أنَّ القوط لمَّا نزلوا في أيبيريا، ألزموا كُل مُزارع أن يتنازل عن ثُلث أراضيه لِصالح القوطي الذي يُريد احتراف هذه المهنة، وفي حال رفض القوطي أن يعمل بالزراعة، يقوم المُزارع باستغلال الأرض، ويُقدِّم ثُلث إنتاجها لِلنبيل القوطي، واتسعت هذه القسمة في الأرض وإنتاجها حتَّى شملت المنازل والماشية ومُختلف أنواع الزراعة ومع مُرور الزمن، اغتصب النُبلاء الأرض كُلَّها وعدُّوها ملكًا لِلدولة، وأجبروا المُزارعين الأحرار على العمل فيها كأنهم أقنان أو عبيد، وأضحى هؤلاء، بِمُرور الزمن، مُرتبطين بِالأرض وبِأصحاب الأملاك من النُبلاء، مدى الحياة وكان على أصحاب هذه الطبقة تقديم عُشر محاصيلهم إيجارًا، إضافةً إلى تأدية بعض الخدمات الشخصيَّة لِلنبيل، وضريبة الرؤوس أو الجزية، وقد وقع

عليهم عبء الإنفاق على الدولة، الأمر الذي أدَّى إلى ضعفهم وإفلاسهم فأُصيبوا بِالبُؤس والشقاء.

طبقة الشعب الدُنيا: تكوَّنت هذه الطبقة من المُزارعين البُسطاء والعبيد الأرقَّاء، وارتبطوا بِالأرض وأُلحقوا بِالضياع، ولِلسيِّد عليهم حق الحياة أو الموت وكان هؤلاء جميعًا مُسخرين لِرفاهيَّة الفئات الرفيعة من النُبلاء والأُسرة الحاكمة وكبار رجال الدين، وكانوا يُستخدمون في الأغراض الزراعيَّة والأعمال المنزليَّة على حدٍ سواء، فرزحوا تحت شقاء الحياة وبؤسها، وسُلبت منهم كُل الحُقوق المدنيَّة، وهُم أكثر عددًا من أفراد الطبقات الأُخرى، وأقل حُقوقًا.

الوضع الديني

انتشرت المسيحيَّة في رُبُوع شبه الجزيرة الأيبيريَّة مُنذُ العهد الروماني، وكان القوط بدايةً على المذهب الآريوسي الذي يقول بِالطبيعة الواحدة لِلمسيح على أنَّ المذهب الخلقيدوني الذي كان يُدين بِطبيعتين لِلمسيح كان مُنتشرًا في أواسط العامَّة من غير القوط ولم يفرض القوط مذهبهم، فكان أفراد كُل مذهب يُمارسون شعائرهم الدينيَّة في كنائسهم الخاصَّة بِحُريَّة، بِمُساعدة رجال الدين التابعين لهم وأدرك أحد مُلوك القوط، وهو ريكَّاريد الأوَّل عندما حاول إصلاح أوضاع الدولة، وقد

اعترضته هذه الظاهرة الدينيَّة المقسمّة التي أدَّت إلى حُدوث مُشكلات بين السُلطة والكنيسة؛ أنَّ الإصلاح الحقيقي يبدأ بِتوحيد المذهب الديني، فاتخذ الخلقيدونيَّة مذهباً رسميًّا وحيدًا لِلبلاد وهكذا أعلن مجمع طُليطلة الديني الذي انعقد في سنة 587م تخلِّي ريكَّارد عن المذهب الآريوسي واعتناقه المذهب الخلقيدوني، وتبعهُ في هذا التحوُّل سائر القوط، فتوحَّدت الكنيسة الهسپانيَّة تحت ظل الملكيَّة القوطيَّة أعقب هذا التحوُّل المذهبي تبنِّي اللُغة اللاتينيَّة كلُغة رسميَّة في هسپانيا، وتوثَّقت نتيجة ذلك العلاقات مع البابويَّة التي أضحى تأثيرها كبيرًا في شئون البلاد، كما أصبح لِأُسقُف طُليطلة مركزٌاً هاماً لا يقل عن مركز الملك نفسه.

بِالإضافة إلى الديانة المسيحيَّة، كان ما يزال في أيبيريا عددٌ من السُكَّان الوثنيين،لكنَّهم تعرَّضوا لِلاضطهاد لِحملهم على اعتناق المسيحيَّة فقد فرض مجمع طُليطلة الثالث في سنة 589م على كُل أُسقف أن يتعاون مع القاضي المحلِّي في مُكافحة الوثنيَّة في منطقته، وكان البشكنس الباسك من جُملة الجماعات الوثنيَّة التي تعيش في منطقة الشمال الشرقي المُتاخمة لِجبال البرتات، وفشل رجالُ الدين في حملهم على اعتناق المسيحيَّة طيلة العهد القوطي وعاشت في هسپانيا جماعة يهوديَّة كبيرة شكَّلت أحد عناصر السُكَّان في المُجتمع القوطي، ويبدو

أنَّهم استوطنوا أيبيريا في وقتٍ مُبكرٍ قادمين من المشرق على أثر الاضطهادات المُتعدِّدة التي تعرَّضوا لها في فلسطين على أيدي الرومان، فانتشروا في البُلدان الواقعة على سواحل البحر المُتوسِّط، ولقَّبوا أنفُسهم بالسفارديم، وأرجعوا أُصولهم إلى قبيلة يهوذا الملكيَّة وانتشر اليهود في مناطق عديدة من أيبيريا، لكنَّهُم تركَّزوا في الأماكن الحضريَّة المُتقدمة مثل العاصمة طُليطلة، والجنوبيَّة، وعلى طول ساحل البحر المُتوسِّط في الشرق وامتلكوا ضياع واسعة، وعملوا في الزراعة والتجارة والصيرفة، فحقَّقوا قدرًا وافرًا من الثراء أتاح لهم التحكُّم في الحياة الاقتصاديَّة، ومن خِلالها فى ِالشُئون السياسيَّة ويبدو من التشريعات العديدة التي صدرت فى ِحقهم في عُهودٍ مُختلفةٍ أنَّ فعاليَّتهم التجاريَّة كانت مُهمَّة بِقدر أهميَّة نشاطهم الزراعي فلم يتعرَّض اليهود في مُستهل الحُكم القوطي لِلمُضايقات، وسُمح لهم بِحُريَّة العقيدة ومُمارسة شعائرهم الدينيَّة، ومع مرور الزمن لحُكم القوط، شعروا بِوطأة اليهود من واقع تصرُّفاتهم التي عُدَّت شاذَّة ومُعادية، مثل: استغلال الغير، والربا الفاحش، والسيطرة على الحياة الاقتصاديَّة، والتآمُر السياسي لِلمُحافظة على المُكتسبات المُنجزة، والاستعلاء على النصارى، بِالإضافة إلى اتجاه المُجتمع الهسپاني نحو الوحدة الدينيَّة نتيجةً لِذلك ظهر في أيبيريا اتجاهٌ مُعادٍ لِليهود، وبدأ هؤلاء يتعرَّضون لِشتَّى أنواع المُضايقات والاضطهاد،

ولعلَّ الملك ألاريك الثاني 484–507م هو الذي افتتح هذه السياسة، وتقرَّر في مجمع طُليطلة الثالث حرمان اليهود من الوظائف العامَّة، واقتناء العبيد من النصارى، كما فُرض التعميد على أطفالهم من الزواج المُختلط وخطا الملك سيسبوت 612–621م خُطوة أُخرى حين أمر في سنة 613م، بِتعميد اليهود خِلال عامٍ واحد، أو نفيهم ومُصادرة أملاكهم في حال الرفض فاعتنق كثيرٌ منهم الديانة المسيحيَّة رياءً، وهرب الرافضون إلى الغال وأفريقية.

لم تُحقق هذه التشريعات هدفها الخاص بِتنصير اليهود، لكن مجمع طُليطلة الرابع، الذي انعقد في سنة 633م، أصرَّ على أنَّ اليهود الذين تمَّ تعميدهم لا يحق لهم أن يعودوا إلى دينهم الأصلي، على أن يُفصل من عاد منهم إلى دينه عن أبنائهم، وأن يُباعوا أرقَّاءً، كما أصرَّ على تعميد اليهودي الذي يتزوَّج من مسيحيَّة وإلَّا فُصلت عنه زوجته وتصاعدت الحملة ضدَّ اليهود في المجمع الثاني عشر، الذي انعقد سنة 61هـ 681م في عهد الملك إيرفيگ (60 - 67هـ \ 680 - 687م)، فحُرموا من امتلاك مزارع النصارى، ووصلت ذُروة التضييق عليهم في عهد الملك إخيكا، الذي اتهمهم بِالتآمُر ضدَّهُ مع يهودٍ من خارج البلاد، فأصدر عدَّة قرارات تشريعيَّة تهدف إلى شل القُدرة الاقتصاديَّة لهم، والحد من

قابليتهم للحُصُول على المعيشة اللائقة، مما حملهم على بيع عبيدهم ومُمتلكاتهم إلى الدولة، كما مُنعوا من مُزاولة العمل التجاري على مُختلف أنواعه سواء أكان داخلي أم خارجي، وتعرَّضوا لِلأذى الجسدي، من السُخرية بهم وامتهان كرامتهم إلى ذبحهم فرادى وجماعات في عمليَّاتٍ مُدبَّرة وكان من أبرز تشريعات إخيكا مُحاكمة اليهود واللُصوص بِالإغراق بِالمياه بحال ثُبت أنَّ معهم بضائع تفوق قيمتها 300 صوليدوس واستطاع اليهود، في كثيرٍ من الأوقات، تخفيف القُيُود المفروضة عليهم عن طريق رشوة النُبلاء ورجال الدين، لكنَّهم مع ذلك تأثَّروا، إلى حدٍ كبير، الأمر الذي دفع العديد منهم إلى الفرار من البلاد، كما اشترك بعضهم في العديد من الحركات المُناوئة لِلسُلطة ومنها ثورةٌ كُبرى كانت الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة قد خطَّطت لِإشعال فتيلها في أيبيريا بِالتعاون مع الرومان واليهود المُقيمين فيها أدَّت هذه الاضطهادات التي طالت اليهود قُبيل الفتح الإسلامي إلى تطلُّع هؤلاء إلى أي طرفٍ خارجيٍّ مُنقذٍ لهم من الوضع المُتردي الذي كانوا فيه، الأمر الذي جعلهم يتخذون موقفًا إيجابيًّا من الفاتحين المُسلمين لاحقًا.